6

الخاتمة

obeikandl.com

obeikandl.com

يتألف الإطار النظري الذي قُدِّم ليساعدنا على فهم ظاهرة الإبادة الثقافية من المفاهيم الأساسية الآتية: النزعة المحلية (وهي مدروسة هنا على مستوى الجماعة)، والبيئات الإعلامية المغلقة، والمعتقدات الجماعية. دعونا نعرض كيف أدى كل من هذه المفاهيم دورًا في الأمثلة التي ذُكرت في الفصول السابقة، وكيف قدم الدعم الرسمي والشعبي الممكن للإبادة الثقافية.

النزعة الفطرية المحلية

في كل حالة عُرضت في هذا الكتاب نجد ازدواجية؛ أي إنه يوجد بيئتان للنزعة المحلية تولدان النماذج الثقافية: الأولى ثقافة قومية عدوانية، والأخرى ضعيفة نسبيًّا. في حالة الإبادة الثقافية التي اُرتكبت ضد هنود أمريكا الشمالية، كان هناك مجموعتان ترعرعتا ضمن إطار من النزعة المحلية، ولم يكن هناك أي تشابه بين النظام الثقافي لكل من الحالتين، سواء كان أوروبيًّا أو أمريكيًّا. مع بدء التواصل الحقيقي، في بداية القرن السادس عشر، كانت الفروقات الثقافية كبيرة جدًّا حتى إنها بدت للطرفين- بالنسبة إلى الأكثرية من الشعوب المعنية على الأقل- أنها إقصائية.

مع الأخذ بالحسبان الكثافة السكانية القليلة في الأمريكتين كان من الممكن تجنب الصدام المحتوم بين هذه المجتمعات التمييزية لولا نسبة الهجرة العالية من أوروبا، وخلال وقت قصير نسبيًّا، وفيما سُمِّي أساسًا بالهجرة الجماعية، انتقل المحليون

obeikandi.com

الأوروبيون بتجلياتهم النفسية إلى شواطئ أمريكا الشمالية. إن الانتقال إلى منطقة غريبة يغير- بالتأكيد- ثقافات المهاجرين مع مرور الوقت، ولكن المزيج الجديد الناتج عن ذلك كان لا يزال بعيدًا عن الهنود الأصليين.

يمكن أن ينظر المرء مباشرة إلى الأمر من خلال مفهوم حقوق الملكية؛ إن الملكية الخاصة كما هي مفهومة في أوروبا لم تتطور بوصفها نتاجًا للنزعة الفطرية المحلية الأمريكية الهندية، وهذا حقيقي ولا سيما بخصوص ملكية الأراضي. ومن جهة أخرى، فقد أحضر المستوطنون الأوروبيون معهم مفهوم الممتلكات العقارية الذي وطد بطريقة ما فهمهم الجغرافي للعالم، وفي النهاية فإنهم سوف يجبرون الهنود على هذا المفهوم. وقد عبَّر سيدنر لارسون (Sidner Larson) عن هذا الأمر بقوله: «يكمن وراء الاعتداء الإنكليزي على أمريكا الشمالية، ووراء مجازرهم بحق المواطنين الأمريكيين الأصليين، ومكرهم، ووحشيتهم، دافع قوي قائم على الملكية الخاصة» (Larson, 1997, 570).

ومن نتائج النزعة الفطرية المحلية التي اشترك الأوروبيون والأمريكيون الأصليون فيها الإحساس بأن نظرة كل واحد منهم، وطريقة تأديته للأشياء، كانت (طبيعية)، وهذا جعل من الصعب على الغالبية في أي من المجموعتين تبني طريقة الآخر في الحياة. وقد غرس الأوروبيون، بوجه خاص، هذا الشعور بالمحلية بقداسة دينية متخيلة، وهذا بدوره أعطاهم شعورًا معينًا بالتفوق، ولهذا الشعور أساس معين في الواقع، ولكنه لم يكن مستقرًّا في أي نعم روحية، إنما يعتمد على تفوقهم الكبير بالسلاح على معارضيهم. كل ذلك كان مغلفًا بمجموعة من التدابير الحضارية والمتجددة، بقدر ما كان ذلك يعني الأوروبيين. وهكذا كان ذلك هو الوضع، بغض النظر عما ننظر إليه من تنوع النزعة المحلية الأوروبية. ولا يهم الأمر سواء كانوا بروتستانت متشددين في ماساشوستس، أو كاثوليك في ماري لاند، أو من المشيخية الاسكتلندية في جورجيا، فإن موقفهم تجاه (الآخر) هو أن الهنود الأمريكيين كانوا متشابهين تمامًا.

أدى عدم التبصر الثقافي الواسع الانتشار هذا إلى ظهور هوية تتصف (بالسلب والنهب)، حسب تعبير أرجون أبادوراي، وكان غالبية المستوطنين الأوروبيين ينظرون إلى الثقافة الهندية على أنها ليست (شاذة) فقط، بل وخطرة أيضًا، فبالنسبة إلى معظمهم ليس هناك (نبلاء همجيون)، كان ذلك ما أنتجه المفكرون الرومانسيون الأوروبيون القاطنون بعيدًا مثل روسو؛ فهناك تهديد واحد بالنسبة إلى القاطنين في مناطق الهنود؛ وهو تهديد الهمجيين، فإذا لم يُطهَّروا عن طريق المبشرين المسيحيين، فإنهم يستحقون إما عزلهم ضمن شروط، أو مسحهم جميعًا من الوجود. إن النزعة المحلية، في صورتها التي اتخذت صورة الهوية الأوروبية الاستلابية، لم تأخذ التعددية بالحسبان، لقد أوقف تفاوت القوة، المتمثل بالأسلحة المتفوقة، نتيجة (تصادم الثقافات) هذا.

وعندما نسير قدمًا في الزمن، ونعود إلى الوراء جغرافيًّا إلى أوروبا، لدراسة ازدواجية القياصرة، والأرثوذكس الشرقيين، والبيئة المحلية، مقابل ازدواجية اليهود ضمن الإمبراطورية الروسية، فإننا نجد نموذجًا من المواقف المتماثلة يُمارس ضد البيئات الثقافية المختلفة حتى النهاية، وهنا نجد أيضًا أن هناك مجموعة أقوى من الأخرى.

ومرة أخرى كان الشعور بالقوة قائمًا على قوة السلاح ومُعززًا بالدين، ومجددًا هناك خوف (منتشر) من تهديد (الآخر)، (مع أنه في هذه الحالة ليس تهديدًا جسديًّا). لقد كان السيناريو في حالة روسيا القيصرية راسخًا في الزمن أكثر مما كان عليه عند الأمريكيين في مناطق الهنود، وهذا يعني أن أسطورة معاداة السامية كانت تتسرب منذ قرون وليس منذ قرن أو ما يقارب القرن.

خلال هذه القرون تكررت أحداث الاعتداءات على اليهود، وإن لم تكن محاولات كاملة للإبادة الجسدية، فقد أظهرت وجود الهوية الاستلابية المتنامية لدى غير اليهود في أوروبا. ويمكن ترقب الأوضاع المناسبة لمثل هذه المحاولة في القرن العشرين، فعلى الأقل كان التناقض واضحًا جدًّا بين رغبة قياصرة القرن التاسع

obeikandi.com

عشر بالاندماج في الحداثة الأوروبية، وبين المذبحة التي ارُتكبت بحق اليهود تحت سيطرتهم.

على أي حال، لم يمنعهم هذا التناقض من تنفيذ الإبادة الثقافية، وكانت جهود القياصرة المتكررة لاستخدام العزلة الجغرافية، والتجنيد العسكري الإلزامي، والمعالجة الثقافية، وحتى التحول الديني الإجباري لطمس يهودية اليهود (أي تدمير النزعة الفطرية المحلية ضمن المجتمعات اليهودية نفسها) مقبولة، وأحيانًا مستحسنة، من قبل الروس المقيدين بالأساطير، الذين كانت وجهة نظرهم نتاج بيئة معزولة ومشوهة تمامًا كبيئة اليهود الشتيتل أنفسهم. ومن جهة أخرى، فإن قدرة النزعة الفطرية المحلية على وضع معايير لنظرة الأفراد العالمية والمجتمعات عمومًا قد شهد عليها ليس فقط طبيعة اللاسامية القديمة، بل أيضًا قدرة اليهود الأوروبيين على مقاومة الحصار جيلًا بعد جيل.

إن تبني اليهود الناجين من النزعة اللاسامية للهوية الاستلابية المماثلة هو دليل على الحقيقة التي مفادها أن العزلة التي فرضها المجتمع غير اليهودي على اليهود كان لها نتائج سلبية على نتاج نظرتهم المتأصلة فيهم، فالمعاناة لا تسفر عن الحكمة ولا تبني الشخصية، إنما تسفر عن النقمة والسخط، وتعزز الرغبة في الانتقام الذي يمكن أن يحل بمجموعة غير مسؤولة مباشرة عن محنتك. إن كنت حبيس محليتك، فلا يمكنك بالضرورة أن تبني تصورًا مصقولًا وعقلانيًا تجاه (الآخر)، إذ يمكن أن تعرِّف تلك المجموعة بإسهاب وتعميم مثل: (الهنود كلهم، وجميع البيض، وجميع اليهود، وجميع غير اليهود)، وعلى هذا الأساس يمكن أن تلصق تلك الأوصاف والتعريفات بأي عدد من الشعوب البريئة الأخرى.

وهكذا كان حال اليهود الأوروبيين الذين خلقوا إسرائيل، إذ لم يكونوا مجرد ضحايا، بل أيضًا نتاج النزعة المحلية الحادة التي فرضها عليهم مضطهدوهم، وقد انعكست الصورة الناجمة عن ذلك في اليهود على هيئة هوية استلابية متطرفة

كتلك التي كانت لدى الأعداء اللاساميين، وكان عليهم إثبات ذلك من خلال وصفهم ومعاملتهم للفلسطينيين.

عندما هاجر الأشكناز (اليهود الأوروبيون) الذين شاركوا في الحركة الصهيونية، إلى فلسطين بعد وعد بلفور عام 1917م، لم يتخلوا عن نظرتهم الأوروبية، ولا حتى عن أساطيرهم القائمة على الإنجيل، على الرغم من علمانيتهم، ومن ثم فإنهم جاؤوا إلى هذا المكان اللاغربي بسلوك المستوطنين الأوروبيين الثقافي المتأصل تاريخيًّا في موقف المستوطنين الأوروبيين أبناء البيئة الاستعمارية. فلنتذكر أنه منذ عام 1917م حتى العام 1948م، كانت فلسطين وفقًا لعصبة الأمم (ومن ثم الأمم المتحدة) إقليمًا تحت الانتداب البريطاني، وقد عقد الصهاينة تحالفًا مع البريطانيين بناءً على وعد بلفور، وجاؤوا إلى فلسطين بصفة مستوطنين أوروبيين تحت الحماية البريطانية.

ومن ناحية أخرى، كان اليهود يشيرون بطريقة متضمنة إلى القدس في صلواتهم ومهرجاناتهم، وهذا أعطى للمراقبين وغير المراقبين شعورًا بالارتباط بفلسطين عامة والقدس خاصة، على الرغم من أن عددًا قليلًا منهم لم يذهبوا إلى فلسطين في حياتهم. وبغض النظر عن مسألة أن المرء يستطيع قراءة التوراة بوصفها كتاب تاريخ، فإن ارتباط غالبية اليهود العظمى بالأرض المقدسة كان في الحقيقة ارتباطًا خياليًّا لا أساس له في الواقع، وكان ذلك نتاج أكثر من ألف عام من سرد القصص الشفهية المتوارثة في بيئة من المحلية المفروضة بالقوة.

في أثناء الحرب العالمية الثانية والهولوكوست النازية، تدهورت العلاقات كليًّا بين المهاجرين اليهود في فلسطين والسكان العرب المحليين، وقد كان العرب المحليون أيضًا نتاج النزعة الفطرية المحلية المُعزِّزة بعلاقتهم بالأرض التي لم تكن وهمية بل كانت حقيقية؛ لأنهم كانوا هم وأجدادهم دائمًا في مكانهم الطبيعي، ومن ثم، وإلى حد معين، فإن سيناريو الأمريكيين الأصليين قد طُبق في الأرض المقدسة. كان الصهاينة ينظرون إلى الأمر أحيانًا بهذه الطريقة، وأحيانًا يشيرون إلى أنفسهم على أنهم حجاج العصر الحاضر وبيوريتانيون متشددون، ويشيرون إلى العرب على أنهم

يشبهون قبيلة (الأباتشي)5. وفي الحقيقة فإن الصهاينة يشبهون بالفعل المهاجرين إلى أمريكا الشمالية في القرنين السابع عشر والثامن عشر من حيث نياتهم؛ ففي كلتا الحالتين كان يشعر الأوروبيون، الذين ولدوا وترعرعوا ضمن عصور تاريخهم المحلي، بالتفوق الثقافي والإيديولوجي الذي أُيد (دُعم) بالتكنولوجيا التي كانت متقدمة فعلًا، وقد اعتدوا على مكان غير أوروبي، وأخذوا أرض غيرهم لأنفسهم، ومرة أخرى لا المنتصر ولا المهزوم يستطيع مشاركة الآخر بوجهة نظره؛ كلاهما كان ملتزمًا بمبادئه الثقافية.

وأخيرًا، فقد أعدت النزعة الفطرية المحلية لمرحلة المواجهة المستمرة بيت التيبتيين والصينيين. كانت التيبت دائمًا، وما زالت إلى حد ما، أكثر الأماكن عزلة في العالم، وقد طورت بشدة- خلال هذه العزلة- ثقافة خاصة حساسة، بالإضافة إلى الدين البوذي الخاص بها. في بداية القرن التاسع عشر، وعندما بدأ العالم الخارجي يتجاوز تلك الأرض جديًّا، تصالحت الكنيسة مع الدولة في التيبت. في البداية، جاء الغزو البريطاني للتيبت عن طريق الهند، ومن ثم أتى الاحتلال الصيني ما قبل الحرب العالمية الثانية، وما زال الاحتلال الصيني مستمرًّا.

أعدَّ الاحتلال الصيني لمرحلة من الصدامات الجدية بين الثقافات ذات النزعة المحلية المتنافسة، وكانت الأيديولوجيا الحاكمة في بكين هي الأيديولوجية الشيوعية؛ ذلك النموذج الثقافي الذي عمل به الفاتحون الصينيون والذي كان معاديًا عنيدًا للدين، في حين أنه هو نفسه يحمل وهج الدين وحماسته.

لقد تنوعت إستراتيجية الصين في التيبت ما بين المنهج التدريجي والمحاولات الكاملة لفرض الشيوعية الراديكالية بين عشية وضحاها، وسرعان ما أصبح من الواضح أن التكتيك الحربي لن ينجح ما بقي الجانب الهيكلي الأساسي للثقافة التيبتية- أي البوذية التيبتية- سليمًا غير منقوص. ومن جهة أخرى، فقد أظهرت

تجارب الثورة الثقافية في التيبت مدى رسوخ جذور البوذية؛ إذ يمكنك تدمير المعابد البوذية، ولكن بمرور الوقت سيعيد السكان المحليون بناءها.

عاد الصينيون إلى المنهج التدريجي الذي لا يسعى إلى طمس البوذية في التيبت بل إلى تحويلها، وإعادة تعريفها بطرائق تتلاءم مع الحكم الصيني، وبالأخذ بالحسبان كون البوذية متكاملة مع الثقافة التيبتية التقليدية، يتبين أن هذه الخطوة في الواقع إستراتيجية بطيئة للإبادة الثقافية.

تتولى بكين الآن الإدارة الدينية، وتُملي على الأساقفة ما يمكن تعليمه وما لا يمكن تعليمه، أو ما يمكن توريثه للأجيال القادمة. لقد فُقدت التعاليم التي تغذي التيبتيين بالمفاهيم المتطورة حول علاقتهم بالطبيعة القائمة على الانضباط الذاتي، وعلى مجموعة من المبادئ الأخلاقية، واحترام القادة البوذيين أصحاب الإنجازات القيِّمة. وآل الدين إلى المسائل الصغرى غير الخلافية؛ مثل الأساطير والشعائر، وبذلك أصبحت الثقافة التيبتية مجرد ظل لما كانت عليه سابقًا، وبهذه المرحلة أصبحت البوذية التيبتية- برأي القادة في بكين- غير قادرة على أن تضاهي التطور والحداثة التي أحضروها إلى التيبت، وبذلك ظنوا أن الدين سيضعف بمرور الوقت.

البيئات الإعلامية المغلقة

تضفي النزعة الفطرية المحلية على نفسها بيئات إعلامية مغلقة معينة تقتصر على الشؤون المحلية فقط، ومن المؤكد أن تكون الأحداث المحلية عرضة للتحقيق المباشر، وتكون المعرفة البيئية في متناول اليد، وعلى أساسها تصبح الأحكام النقدية ممكنة، وغالبًا ما تكون المعلومات التي لا تتلاءم مع التجربة الشخصية غير مقبولة. وعلى أي حال فإن الغالبية العظمى من السكان المحليين لا يدركون الأحداث البعيدة عنهم؛ لأن نطاق المعرفة لدى المرء محدود، ويفتقر المرء إلى المعرفة البيئية الضرورية للتفكير الناقد. إن مصدر المعلومات حول أحداث كهذه، والتي يجب أن تكون دائمًا

مُنمَّطة بطريقة تنسجم مع الثقافة العامة، هو مصدر مغلق ومقتصر على مصادر حكومية أو مؤسساتية رسمية معينة.

إن الرجال والنساء الذين أتوا بأعداد متزايدة عن طريق المحيط الأطلنطي، لا يملكون معرفة مباشرة بهنود أمريكا الشمالية، وينطبق الحال على معظم الذين استقروا في المناطق التي أصبحت المستعمرات البريطانية الثلاث عشرة على طول الساحل الشرقي ل لأمريكا الشمالية. حدثت في المستوطنات السابقة تفاعلات مباشرة ومشتركة نسبيًّا، وفي ذلك السياق حدث صدام بين الإقليمية الدخيلة ونماذجها الثقافية المتناقضة بوضوح، وما إن تطور ذلك الصدام حتى أُبعد معظم الهنود عن المستوطنات الأوروبية، وربما ينتهي الصراع المستمر بين الحزبين المتنافسين إلى الابتعاد عن الأرض المحلية للمستوطنين الاستعماريين العاديين.

كان عدد كبير من الهنود على معرفة بالأوروبيين؛ لأن مجتمعاتهم جميعًا عانت وطأة التوسع الأوروبي، لكن البعيدين عن منطقة الصراع كانوا يجهلون- مؤقتًا على الأقل- ما هو قادم، وهذا يعني أن كلتا المجموعتين اللتين أُبعدتا عن منطقة الهنود الأصلية سيدركون ويفهمون الصراع من وجهة نظر النزعة الفطرية المحلية. ومن هذه النقطة، فإنهم سيعلمون فقط ما يخبرهم به الأشخاص القادمون من منطقة الهنود الأصلية، أو الشائعات المبنية على القيل والقال، أو (في حالة المستعمرات الأوروبية) مما تعلموه ممن تسلموا السلطة، سواء كانوا سياسيين، أو كتاب روايات، أو صحفيين. وغالبًا ما تكون المعرفة لدى هذه (السلطات) بالية ومرتبطة بالمشاعر الانفعالية الناتجة من الصراع، إذ لم يكن هناك أحد يقوم مقام مدقق الحقائق.

وكذلك يجب أن تتوافق البيئة الإعلامية مع النموذج الثقافي المفروض؛ ففي حالة الأوروبيين، ركز هذا النموذج على التفوق الحضاري المدعوم بالمباركة الإلهية، وقد فُسر إخفاق الهنود بالعيش وفق المعايير الأوروبية (ممارسة ملكية الأراضي الخاصة مثلًا) على أنه دليل على تخلفهم. ولكن حتى في الحالات القليلة التي تكيفت فيها القبائل الهندية مع معايير الحضارة الأوروبية، ومن ضمنها المسيحية (يتذكر

المرء هنا التشيروكي)، فإن المعلومات التي توافرت من البيئة المغلقة والمتشابكة مع عنصرية مهيمنة على النفوس، أسفرت عن اقتناع راسخ بعجز الشعوب المطلق. كانت هذه العوامل قوية جدًّا حتى إنها استطاعت إلغاء حقيقة تأقلم الهنود التي أسفرت عن ترحيل الجماعة الأكثر ضعفًا. في حالة الرئيس أندرو جاكسون (Andrew Jackson) وحلفائه في مواجهة هنود التشيروكي، لم تستطع حتى قوانين الولايات المتحدة أن تخرج عن مسار هذا العمل المسوَّغ ثقافيًّا.

يعطينا تاريخ المستعمرات الأمريكية، والتشريد القاسي للشعوب الأصلية، مثالًا عن قوة البيئة الإعلامية المغلقة. وتعتمد تصوراتنا حول حقيقة الأحداث البعيدة الجارية، على المعلومات التي تردنا من المصادر الخارجية، التي تعتمد عليها قراراتنا وأفعالنا، وترسم القصص التي ترويها تلك المعلومات- بغض النظر عن صحتها أو دقتها- حياتنا.

إذا انتقلنا إلى نموذج القياصرة الروس ومواجهتهم لليهود، فإننا نجد حالة مشابهة لما سبق؛ فلعدة قرون كان يقال للروس- بالإضافة إلى الأوروبيين الآخرين- إن اليهود غرباء خطرون، وقد تناقلوا هذه الفكرة بلغة انفعالية للغاية مستخدمة قضية صلب المسيح، واستغلال الاقتصاديات، وانتهاك الثقافات. وكما كان الوضع في مناطق الهنود الأصلية، لم يكن متاحًا للمواطن الروسي العادي الحصول على المعلومات الموازية، ولم يكن متاحًا له الاتصال المباشر مع (الآخر) إلا قليلًا. وما نتج من الافتقار إلى المعرفة البيئية كان يعني أن الشعوب كانت غير قادرة على إنشاء أحكام ناقدة، حتى لو كان ما حدث لهم يتطلب ذلك؛ وهذه هي النقطة المهمة. ضمن البيئة الإعلامية المغلقة، تكون المعلومات التي يحصل عليها المرء متماسكة وواسعة الانتشار بحيث يراها معظم الناس حقيقة واضحة لا حاجة إلى الشك فيها.

لا ينطبق هذا الوضع على المواطن العادي فقط، بل ينطبق أيضًا على القادة وأصحاب القرار، الذين هم في هذه الحالة القياصرة وحاشيتهم، وطبقة الموظفين في الكنيسة الروسية الأرثوذكسية، والبيروقراطية الشاملة التي حكمت الإمبراطورية

الروسية الواسعة في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين؛ إذ كانت المعلومات التي أوصلوها إلى الشعب هي الأمور التي آمنوا بها. وتبعًا للظواهر، فقد كان هؤلاء الناس مجموعة متعلمة ذات آفاق أوسع من الفلاحين الروس أو سكان المدن، والأهم من ذلك أنهم كانوا على اطلاع بأفكار أوروبا الشرقية التي يُزعم أنها متنورة، ولكنهم كانوا مرتابين من هذه الأفكار، ويخشونَ من أن تُنسف الثقافة الروسية التقليدية، ومن ثم يُنسف الوضع الاجتماعي والسياسي الراهن الذي تعتمد عليه السلطة. لقد كانت الافتراضات التي تعد أساسًا لقراراتهم السياسية، ولصياغة أخبارهم حول الآخرين، متطابقة مع النظرة الثقافية والتاريخية التي يشاركون المواطنين عامة فيها.

وكما رأينا، فإن اليهود الذين اضطهدهم القياصرة الروس في أوائل القرن العشرين، والذين حصلوا غالبًا على دعم المواطنين، قد وجدوا أخيرًا طريقهم إلى فلسطين، فقد أنشؤوا هناك جماعيًّا بيئة إعلامية مغلقة، تعتمد على افتراض أنهم- تمامًا كالمستعمرين الأوروبيين للعالم الجديد- لديهم حق إلهي بالاستقرار على هذه الأرض المحاطة بالأعداء الذين سيدمرونهم ويدمرون ثقافتهم المتقدمة إذا سنحت لهم الفرصة، وفي النهاية فإنهم لم يصفوا أعداءهم صراحة بأنهم (أباتشي) فقط، بل ومعادون للسامية الأوروبية الذين هم مضطهدوهم التاريخيون. منذ هجرة اليهود الجماعية إلى فلسطين عمد اليهود المعنيون إلى خلق بيئتهم الإعلامية وفقًا لهذه الرسالة، ولأن ثقافتهم المدرسية، ووسائل إعلامهم، تبنت هذه البيئة، وبدت مقاومة الفلسطينيين لاستيطانهم وكأنها تؤكد ذلك، فإن (التصورات التي في أذهانهم) جعلت هذه الافتراضات تبدو حقيقة واضحة. وللخروج من هذه البيئة الإعلامية المغلقة، يجب على اليهود الإسرائيليين أن يبحثوا عمدًا عن المعلومات التعويضية، وههنا كان يظهر- ولا يزال- كون اليهودي أو اليهودية تبحث عن ذلك بجد أو لا، ولكن العصبية المحلية الطبيعية جعلت أغلبهم لا يبحثون عن ذلك بتاتًا، فضلًا عن البحث بإصرار وموضوعية، وإذا ما بحثوا مصادفة في هذا المجال، إذا صح التعبير،

فإن افتراضاتهم المكتسبة ستكون راسخة بما يكفي لتجعلهم مستعدين للتخلص من أي شيء يتحدى وجهة نظرهم.

يمكن رؤية العملية ذاتها تحدث اليوم في الصين عندما يتعلق الأمر بالمفاهيم المتعلقة بالتيبت؛ إذ يحصل المواطن الصيني العادي على غالبية المعلومات حول ما تفعله حكومته بعيدًا عن التيبت من المصادر الحكومية، ولأن التيبت لم تعتد على الحياة المحلية لغالبية الصينيين، لم يخطر ببالهم- إلا ما ندر- أن يبحثوا عن مصدر إعلامي بديل يتجاوز هذا الوصف.

يوجد داخل التيبت نفسها حرب ثقافية فعلية، أي صراع بين بيئتين إعلاميتين مغلقتين؛ الأولى هي الثقافة التيبتية التقليدية، والأخرى هي التيبت الصينية الحديثة. لقد كُتب على المروجين للتيبت الصينية الحديثة أن يحلوا محل من سبقوهم، وهم يملكون القوة لفعل ذلك، وكل ما يحتاجون إليه هو الوقت والصبر لإنجاز ذلك.

المعتقد الجماعي

مثلما أن النزعة الفطرية المحلية تناسب البيئات الإعلامية المغلقة، فإن هذه البيئات أيضًا تلائم المعتقدات الجماعية. يجب أن نتذكر أنه إذا قُدِّم للشعب قصة نمطية متجانسة، بواسطة أطياف وسائل الإعلام، وخلال وقت طويل بما يكفي، فإنها غالبًا ستكوِّن صورًا متشابهة في أذهان الشعوب المحلية، والإقليمية، وحتى القومية. وما ينتج عن ذلك هو المعتقد الجماعي. استحدَثت هذه التصورات المنتشرة في أنحاء المجتمع قوة إضافية من حقيقة أن معظم الناس يكوِّنون آراءهم بحيث تتوافق مع آراء من حولهم، وبمجرد انتشار وجهة النظر المشتركة، تنشأ رغبة في تعزيزها من خلال البحث عن المعلومات التي تدعمها، وإهمال أو تقليل أهمية تلك التي لا تدعمها، وقد حدث هذا الأمر في جميع الوقائع التي درسناها.

كان المعتقد الجماعي الذي طور المستعمرات الأمريكية مختلفًا عن فكرة توسع الحضارة تجاه المناطق الأصلية للهمجية (البربرية). إن كلًّا من الهمجي النبيل الذي تحدث عنه روسو (Rousseau)، والهنود الموهيغان اللطفاء نسبيًّا الذين تحدث عنهم جيمس فينمور كوبر (James Fenimore Copper) في رواياته، (هم لطفاء لأن هذه القبيلة كانت ودودة مع المستعمرين البريطانيين)، قد تُركوا للهمجية الدموية في المناطق الهندية النمطية. وبمجرد أن تنُتج الرسالة المرسومة للبيئة الإعلامية المغلقة المعتقد الجماعي، فإن قوة التكيف الإدراكي لديها تصبح واسعة الانتشار، ومن ثم فسوف يعتقد الأطفال، والمسنون، والشباب، إيجابيًّا أو سلبيًّا، أنه حقيقة؛ فعلى سبيل المثال عندما أراد المستعمرون الأمريكيون الذي سمَّوا أنفسهم (أبناء الحرية) أن يحولوا ميناء بوسطن إلى بركة كبيرة من الشاي المثلج6، اختاروا أن يتنكروا كالهنود. إن احتمال عدم وجود أي عدد من الهنود في مدينة بوسطن منذ مئة سنة لم يكن ذا أهمية؛ لأن صورة الهندي بدا أنها تتلاءم مع متطلبات اللحظة.

من هم مخربو الفلكلور الأمريكي؟ الجميع يعلم بأنهم الهنود. لقد أتاح هذا المعتقد الجماعي المرسوم نزع الملكية والتدمير الثقافي للسكان الأصليين.

لم تحدث احتجاجات كبيرة عندما أجبر الجيش الأمريكي التشيروكي، في خضم هذه العملية، على الانتقال غربًا بمقتضى الأوامر غير القانونية للرئيس أندرو جاكسون (Andrew Jackson)، وقد التزم التشيروكي بمتطلبات (جعلهم أمريكيين)، فجعلوا من أنفسهم بذلك حالة شاذة؛ احتجاج مشبوه ثقافيًّا ضد الفكرة النمطية حول الهندي الهمجي. بصرف النظر عن الجشع المفرط لامتلاك الأرض الذي كان دافعًا للمواطنين البيض في جورجيا، لم يكن هناك في المعتقد الجماعي السائد بين عامة السكان الأمريكيين مكان يستوعب التشيروكي المنحرفين، ولعدم قدرة معظم الأمريكيين على فهم التشيروكي، فهم إما أنهم لم يعيروا حالتهم أي اهتمام، أو أهملوا الوضع المتوافق ثقافيًّا، وهو أنهم كانوا متوحشين يتظاهرون بأنهم

obeikandl.com

سيتحضرون، وهي في النهاية حالة لا يستطيع أي هندي تحقيقها، وفي هذه الحالة الاستثنائية، ستسود أنماط المعتقد الجماعي الشائع.

إن الأمريكيين البيض الوحيدين الذين ربما يتحررون من المعتقد الجماعي كانوا هم الذين لديهم معرفة بيئية مباشرة تنافي الصورة النمطية للهنود، وفي حالة التشيروكي فقد عمل المبشرون بجد لتغيير مظهر القبيلة، ولدى مواجهتهم برد فعل شعبي من أمريكا المسيحية، بدءًا من عدم الاهتمام، حتى العداء، فلا بد أن يكونوا قد وقعوا في فوضى وشعروا بالغربة، حتى لقد هددت السلطات الجورجية المبشرين الذين دافعوا عن التشيروكي بالاعتقال والعنف.

كانت معاداة السامية هي المعتقد الجماعي السائد في روسيا القرن التاسع عشر في علاقتها مع اليهود، وكانت تلك ظاهرة قديمة قاسية في هذا الوقت في روسيا بسبب الدرجة التي وصلت إليها البيئة الإعلامية المغلقة المعزولة عن التأثيرات الخارجية. وقد قاومت الثقافة الشعبية الروسية بصورة فاعلة أفكار أوروبا الغربية التقدمية، وكان تحرر اليهود مرتبطًا بهذه الأفكار التقدمية، فقد كانوا بالتحديد مرتبطين بالإصلاحات النابليونية، نابليون الذي كان قد اعتدى على روسيا، كان يُنظر إليه وإلى أفكاره على أنها غريبة.

ورأينا أن الجذور القديمة للاسامية ساعدت على ظهورها على أنها حقيقة بديهية في بيئة لا يَشك في اللاسامية فيها إلا أولئك المتأثرون بالغرب المغاير، وبالنسبة إلى عديد من الناس، لا بد أنه مثَّل طول الأمد برهانًا على حقيقتها. وكانت أيضًا مرتبطة بالمفهوم الشعبي حول موت المسيح، ولذلك فهي مرتبطة بالعنصر الأساسي للمسيحية. وقد كانت المسيحية- بدورها- مظهرًا أساسيًّا للمعتقد الجماعي الروسي المنتشر بصورة أوسع. وأخيرًا فإن زعزعة ارتباط الدولة بمعاداة السامية كان يقتضي ثورة دموية، وإن لم يكن بصورة كاملة.

obeikandi.com

عاد ستالين، بجنون عظمته، إلى الموضوع الذي كان يسيطر عليه في أواخر حياته المهنية بوصفه زعيمًا مطلقًا لروسيا.

لم تكن قوة معاداة السامية مغروسة بعمق في أذهان هؤلاء الكارهين لليهود فقط، بل في أذهان الضحايا أيضًا؛ فقد تقبل يهود أوروبا الرسالة التي مفادها أنهم مختلفون اختلافًا لا علاج له عن غير اليهود المحيطين بهم. وهذا ما يمكن أن تفعله العزلة القسرية المتواصلة والمتطابقة بك. أما فكرة الاختلاف، التي وصلت إلى الاعتقاد بعدم قدرة اليهود على العيش في العالم إلا في مكان خاص بهم وحدهم (أي الغيتو الذي ابتكروه وسيطروا عليه)، فقد أصبحت جزءًا من المعتقد الجماعي لهؤلاء الذين يسعون إلى خلاصهم ضمن الإيديولوجيا الصهيونية، وهكذا أصبحت إسرائيل ضربًا آخر من الغيتو الروسي والبولندي.

إن ضرورة خلق هذا المعتقد الجماعي الطويل الأمد للضحية بطريقة ما من قِبل المعتقد الجماعي للمُضْطَهِدين لم يكن اقتراحًا غريبًا، وعندما يحدث ذلك يكون هناك دائمًا احتمال للتحول المأساوي؛ أي في حالة (متلازمة الأطفال المعتدى عليهم)، يمكن أن تبدأ الضحية بمحاكاة السلوك العنيف للمعتدي، وبالنتيجة فإن الضحية على المدى الطويل هي بطريقة ما نتاج العنف المُطَّبق عليه وعليها. فلنتذكر أن المعاناة لا تبني الشخصية- بالمعنى الإيجابي للقول المأثور القديم على الأقل- وإنما تُنشئ الغضب والاستياء.

لن تستطيع فلسطين تلبية مطالب المركزية العرقية؛ أي أن تكون غيتو لا يعيش فيه سوى اليهود وحدهم فقط، ما دام هذا المكان مليئًا بأهل البلد من غير اليهود. بُني المعتقد الجماعي الصهيوني- جزء كبير منه على الأقل- على أسس منطقية تسمح بالتطهير العرقي الضروري، ومن ثم فإننا نجد ضمن المعتقد الجماعي الصهيوني الميثولوجيا الإنجيلية التي تؤكد وجود الصك الإلهي للأراضي، بالإضافة إلى تحويل الفلسطينيين إلى نازيين (أو إذا أخذنا التسمية اليهودية الأرثوذكسية: عماليق)، وبخلْق تصوراتهم حول هذا المعتقد الجماعي، فقد شبه اليهود الإسرائيليون،

والصهاينة عمومًا، أنفسهم بمضطهديهم، وبدلوا هويتهم بأنهم ضحايا بالهوية الاستلابية، إنَّ هذا في الواقع تصرف مأساوي على مستوى عال.

ولا ريب أن لدى الفلسطينيين معتقدهم الجماعي الخاص بهم، وبعد عدة عقود من الاضطهاد الإسرائيلي فقد تكوَّن أيضًا بناءً على نظرة العدو. ويشير الصهاينة إلى الفلسطينيين على أنهم لاساميون، فإن كان ذلك صحيحًا تمامًا، فإن الطبيعة الدائرية لهذه المعتقدات الجماعية ستكون مكتملة: أنتجت معاداة السامية الروسية اليهود الذين اضطهدوا الفلسطينيين وأنتجوا بدورهم الفلسطينيين المعادين للسامية. ولكن بدا أن معظم الفلسطينيين وجدوا مخرجًا من هذه النتيجة المتطرفة، وربما حدث هذا بسبب الجهود العالمية الفعالة لدعم صراع الفلسطينيين، ومن ضمنها اليهود غير الصهاينة.

يمكن أن يخفف هذا الدعم من حدة الغضب الشديد الموجود عادة ضمن المعتقدات الجماعية للضحايا على المدى الطويل.

وأخيرًا، نجد في حالة التيبت معتقدًا جماعيًّا مُسيطرًا واحدًا؛ وهو المعتقد الجماعي لجمهورية الصين الشعبية؛ بعزل السكان الأصليين، والمعتقد الجماعي التقليدي للشعب التيبتي. السؤال الذي كان يشغل بال الصينيين دائمًا، هو: كيف سيحدث هذا التحول؟ ببطء أو بسرعة، تُعادل هذه العملية بالتأكيد عملية الإبادة الثقافية. على أي حال، وخلافًا للوضع في فلسطين، فإن الهدف هنا ليس التطهير العرقي وإنما الاندماج.

ولتحقيق هذه الغاية فقد تولى الصينيون مسؤولية جميع الأجهزة الثقافية في التيبت: وسائل الإعلام، والفنون، والأهم من ذلك المؤسسات البوذية التيبتية في البلاد، وقد كانت هذه المؤسسات، ومن ضمنها الأديرة، والمعابد، والمدارس البوذية، تمثل ركيزة الثقافة التيبتية التقليدية. وتحت رعاية الصينيين أصبحت هذه

المؤسسات وبصورة هادفة مجردة من مدلولها، ومن ثم لم يعد هناك أي عائق يقف في طريق المعتقد الجماعي الجديد الراسخ في الإيديولوجيا الصينية.

الوضع القانوني المبهم للإبادة الثقافية

لاحظنا في الفصل الأول من هذا الكتاب أنه عندما أنشأت الأمم المتحدة في ديسمبر 1948م اتفاقية منع جريمة الإبادة الجماعية والمعاقبة عليها، لم يتضمن نصها الإبادة الثقافية، ففي ذلك الوقت كان واضحًا أن فكرة الإبادة الجسدية ما زالت حية في ذاكرة الجميع، بسبب أهوالها التي لا توصف، ومن الواضح أن فكرة الإبادة الثقافية كانت غير متبلورة في أذهان هؤلاء الذين صاغوا اتفاقية الإبادة الجماعية. وقد عبر عن ذلك تقرير معهد كارنيجي (Carnegie): «بينما كانت المعاهدة قيد الإنجاز أُثير جدل حول هدفها الصحيح. لقد تفهم عديد من ممثلي الدول المساهمون في صياغة الاتفاقية أن الإبادة الثقافية بارزة تحليليًّا، حيث يمكن القول بقوة إنها تتنكر للمنطق والتناسق في إدراج كل من الجرائم الجماعية في غرف الغاز وإغلاق المكتبات في المعاهدة نفسها» (Narsessian, 2005).

وقد أظهر نموذجا الإبادة الثقافية ما بعد الهولوكوست كيف أن المظاهر الحديثة لهذه الظاهرة تجاوزت إغلاق المكتبات، ولاحظ الآخرون ذلك أيضًا، وقد اكتسب التدمير الثقافي صفة الدليل على نية ارتكاب الإبادة الجماعية ضمن جدول أعمال المحكمة الجنائية الدولية المتعلق بيوغسلافيا السابقة. فقد عُرِّف التدمير الثقافي في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان على أنه انتهاك صارخ للحقوق، وطالب بالحماية من الإبادة الثقافية كلٌّ من الميثاق الدولي الخاص بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، بالإضافة إلى الاتفاقيات الإقليمية مثل ميثاق الاتحاد الأوروبي.

على أي حال، هناك فرق نوعي بين هذه الأجهزة واتفاقية الإبادة الجسدية، وتمثل تلك الأخيرة أساس المحاكمة الجنائية للأفراد الذين يرتكبون الإبادة الجماعية. إن اتفاقية الإبادة الجسدية تحمِّل الدول المسؤولية، وتطالب هذه الكيانات بوقف الإبادة

obeikandl.com

الثقافية والتعويض عنها، ومع ذلك لم يكن لدى الدول ما يلزمها بصرف النظر عن مواطنيها وبيروقراطياتها وزعمائها. إن لم تستطع إمساك الجناة المسؤولين بطريقة ملموسة، فلن تسيطر على هذه الأعمال.

ذكر تقرير كارنيجي أنه يجب إخضاع الإبادة الثقافية «للقانون العرقي الدولي، والحاجة إلى ذلك كانت واضحة؛ إن الإبادة الثقافية هي خطأ فريد ويجب تمييزه بصورة مستقلة، ورفعه إلى ما يستحقه من مستوى المسؤولية الجنائية الفردية»، وقد يتحقق ذلك يومًا ما، ولكن ليس الآن؛ لأن الإرادة السياسية غير موجودة الآن.

يمتلك العالم ذاكرة تاريخية قصيرة، وقد أضعفت تلك السنون التي مرت منذ الهولوكوست القدرة على تذكر الأحداث التي آذت الغرب ودعت إلى إنشاء المعاهدة الأصلية للإبادة الجماعية. نجد أنفسنا ثانية أمام وقت عصيب من المفاهيم المزدوجة، في وقت يسعى فيه السياسيون الغربيون إلى تبرئة أنفسهم، وحلفائهم، والأقوياء عامة، من نتائج أكثر الأعمال فظاعة، ومن ثم فإذا كنت قائدًا إفريقيًّا، أو بلقانيًّا، أو مسلمًا، وارتكبت أعمال إبادة جماعية، فستجد نفسك تُحاكم أمام محكمة الجنايات الدولية، وأما إذا كنت قائدًا لدولة قوية، أو كنت من أحد حلفاء الدول العظمى المفضلين، فإنك مستثنى من هذه المحاكمة، وذلك يعيدنا إلى عصر الإمبريالية، عندما ارتكبت الدول الغربية مجازر بحق غير الغربيين من غير أن تنال جزاءها.

وخير مثال على هذه النزعة هو الهجوم الحالي على مفهوم السلطة القضائية الدولية؛ والسلطة القضائية الدولية هي عملية قانونية تتيح للمواطنين القاطنين في الدول المُوقِّعة على المعاهدات الدولية المختلفة؛ مثل اتفاقية الإبادة الجماعية، ومعاهدات جنيف، إقامة دعوى ضد المنتهكين المزعومين لبنود هذه المعاهدات، حتى لو كانت هذه الانتهاكات قد ارتُكبت خارج البلد الذي يقيم فيه هذا المواطن، وقد أُنشئت هذه السلطة القضائية لمنع مثل هؤلاء المجرمين المزعومين من الهرب إلى مكان آخر فرارًا من العدالة. وبعد الهولوكوست النازية وجرائم أخرى مماثلة،

قبلت معظم الدول الغربية بالسلطة القضائية الدولية على أنها خطوة قانونية إيجابية وضرورية.

والآن، وبمرور الوقت وبغياب الذكريات، ظهرت حركة لتدمير السلطة القضائية الدولية؛ لأنها يمكن أن تُربك العلاقات الدبلوماسية بين الدول إذا كان في إحدى هذه الدول قادة أو مواطنون بارزون تجب محاكمتهم بمقتضى المعاهدات.

هؤلاء الأشخاص خاصة غير محصنين إذا أُثبت أنه ليس لدى حكومتهم أي نية بتسليمهم إلى المحاكمة بناء على الاتهامات المزعومة.

لدينا مثالٌ حديث حول هذا الأمر؛ وهو الجهود التي يبذلها مواطنون في المملكة المتحدة للحصول على مذكرات اعتقال لعدد من الشخصيات الإسرائيلية المدنية والعسكرية ممن يزورون البلاد، فقد اتُّهمت هذه الشخصيات، ومن ضمنها وزيرة الخارجية السابقة تسيبي ليفني (Tzipi Livini)، بارتكاب جرائم حرب في العدوان الإسرائيلي على غزة في يناير 2009م، وكان جواب الحكومة البريطانية عدم الالتزام بالاتفاقية، بل حاولت إلغاء القانون حتى لا تُضطر إلى المواجهة الدبلوماسية مع إسرائيل.

المعضلة الحالية ومستقبل الإبادة الثقافية

لا يزال عالمنا يسير وفق أسلوب الدولة القومية التي تحتفظ بمبدأ السيادة، وقد كانت الهولوكوست تجربة ينفطر لها القلب وأتاحت كبحًا جزئيًّا لهذا المبدأ؛ من خلال ميثاق الإبادة الجماعية، أو الأجهزة الدولية الأخرى. هناك من ينبذ هذه الجهود بوصفها (غريبة) وبالية، وهم في غنى عنها. يمكننا تصور معضلتنا الحالية وفقًا لهذه المبادئ: أنحتاج إلى ضبط سلوكنا القومي والدولي أم لا؟ يشير التاريخ إلى أننا نحتاج إلى ذلك. إن تاريخ الدبلوماسية بأكمله يعد سجلًا ناقصًا وبطيئًا في توطيد القواعد والقوانين. كان تاريخ الغرب بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة

obeikandi.com

خطوة درامية نحو الأمام في عملية التنظيم اللازم لحياتنا القومية، فنحن نعلم أنه بغير هذه القوانين كان العالم، وسيظل، مكانًا فوضويًّا أكثر مما هو عليه الآن، والإبادة الجماعية هي ذروة النزعة إلى الفوضى وانعدام القانون.

يجب السير قدمًا بعملية الترتيبات المعقولة لمصلحتنا جميعًا إلى أن تضيق وتحبط، وما تعلمناه من هذا الكتاب هو أن هناك عوائق كبيرة أمام عملية التقدم، والنزعة الفطرية المحلية هي أحد هذه العوائق، وهناك أيضًا قصر نظر الزعماء والمواطنين المحصورين في بيئاتهم الإعلامية ومعتقداتهم الجماعية الذين سيعرضون المستقبل للخطر بالحفاظ على الحقد المتمركز عرقيًّا في هذه اللحظة.

إن الإبادة الثقافية موجودة ومنتشرة في عالمنا، وهي تمثل تحذيرًا خطيرًا؛ وهو أننا إن لم نتجاوز حدود معتقداتنا الجماعية فسيُحكم علينا بإعادة إحياء وتفعيل الماضي التعيس من جديد، ولكن الإبادة الثقافية تفعل ذلك بعيدًا عن الرقابة، إذا صح التعبير، لأنه لا توجد قوانين ضدها، وإلى الآن لم تصل إلى حد الفضيحة الدولية التي تستوجب إصدار أنظمة وقوانين جديدة. يبدو أن مثل هذه الفضيحة ستكون الحدث الذي يحطم المعتقدات الجماعية لأعداد كبيرة من الشعوب والثقافات، ويجعلهم يعملون معًا لمصلحتهم، وحتى ذلك الحين فإن الذاكرة التاريخية عمومًا تبقى قصيرة.

obeikandi.com